مُناقشات

دون كيشوت آخر

بقلم عبدالجليل حسن

في العدد الماضي من الآداب سطر محيي‌الدين صبحي من دمشق كلمات تحت عنوان «الفوضوية .. لماذا ؟» . ولعله اعتقد ان سبابه يمكن ان ينهض ردا على ما كتبناه تعقيبا على ما جاء بعدد الآداب الممتاز ، وكان بضمنه شيء كتبه وسماه «نحو فكر قومي ثوري» . ولما لم تتسع المناقشة في العدد الاسبق في باب «قرات العدد الماضي» للدفاع عنه ، أصيب «بتهيج» محموم ، فاخذ يسب ويشتم . وبدلا من ان يدفع الملاحظات التي اخذناها عليه ـ سواء ما قاله عن منطلقات الادب العربي القومية وبدايه كلامه ، وما قاله عن الفوضوية وثورة ١٩١٧ في روسيا وخلطه في فهمه للتاريخ ، وان ما قاله « لا يمكن ان يقوله كائنا من كان على ادنى خط من المعرفة بتاريخ الثورة الروسية»، وان الذي يقول ما قاله عن الفوضوية «لا يمكن ان يكون الا يائسا ساخطا رافضا يسيطر عليه النزق العصبي ... ولا علاقة له بالثورة او النزعة الثورية او الفكر القومي الذي يتحدث عنه » . بدلا من ان يناقش شيئا من هذا راح يحدثنا عن «بحثه التحليلي المليء بالمعلومات والوقائع الحية المعاشة» ومنهجه المزعوم وهدفه ، وينهمنا باننا عميا او تعامينا عما في مقالته من تفسير اصيل جديد لم يسبقه احد اليه ... واتهمنا باننا لا نهتم بالمسالة القومية واننا لا نتعمقها ، واخذ يشكو من «الآداب» ويعتب عليها لانها اسلمت ابحاثها لنقاد غير متعمقين في المسالة القومية ، نقاد جهلة بالقومية . ولم يكفه ذلك فاتهمني بانني جزء من اجهزة القمع ، ومن المنتفعين بخيرات الاشتراكية الاقليمية ، وواصل هذيانه فقال «وربما كان الرجل يخاف على راسه اذا تم شن الحملة على اجهزة القمع التي تسد الطريق على نشوء حركة منظمة للثورة الوحدوية الاشتراكية ، فاعذروه» ! ثم ازدادت به نوبة الهذاء فتشنج وصرخ بشتائم من امثال : تفاهة احساسه ، وجبنه عن اعلان ايمانه بالوحدوية ، والنفاق ، والسطحية، وسوء النية ، والجهل ، والعجز والخلل العقلي ... الى اخر الهذيان الذي سوده في سطوره .

●

وهذه الكلمة ليست موجهة لهذا البذيء من دمشق . فالمسالة ابسط من هذا كله لانها لا تتصل بآراء سياسية او احكام في قضايا الاشتراكية والوحدوية والقومية ، وانما تتصل بحالة مرضية ، وقلة اماكن ايواء المرضى الذهانيين في البلاد العربية . ولا تخرج شتائمه عن ان تكون سباب ابله ، كالذي نسمعه احيانا يصرخ به من بعض المرضى في عرض الطريق العام ، ولكن هذا السباب ضل طريقه فاتخذ مظهر سطور مكتوبة . وانما المقصود من هذه الكلمة فقط تعديل بسيط لبعض ما كتبناه في قراءة العدد الممتاز لان هذا من حق القراء علينا. فقد كنا فهمنا ما كتبه هذا السيد في اطار حسن النية الكامل ، الذي تذرعنا به عند نقد ابحاث العدد الممتاز ، فقلنا انه يجب الا ناخذ كثيرا من احكامه الهوجاء على انها احكام مسئولة ، وانما يمكننا ان نفهمها فقط على انها تعبير عن شعور بعدم الرضا والسخط . «وفي حدود التعبير عن هذه «الحالة» فقط يمكن ان نفهم هذا الكلام». وفي هذا الاطار من حسن النية ، اعتقدنا ان حديثه عن التجزئة والاقليمية والاستعمار حديث جاد وصادق وان بعض الملاحظات المتناثرة في مقاله ملاحظات جيدة او مفيدة ، ولم نقل ان مقاله مفيد وانما هذه الملاحظات المتناثرة ، وتوهمنا في حديثه اخلاصا وجدية ، وبسبب هذا الوهم وحده تغاضينا عن كثير من الخلط والاضطراب في مقاله واكتفينا بالاشارة الى نموذج او نموذجين منه .

ولكن بعد هذا الذي سطره في العدد الماضي تاكد لنا اننا افرطنا في حسن النية فنحن لسنا امام «حالة عادية» او سوية من الشعور بعدم الرضا والسخط او امام «حالة نموذجية طريفة من الطفولة اليسارية» ، وانما نحن امام «حالة مرضية» مؤسفة ، لا مدعاة للطرافة فيها ، فالمرض امر يستحق العلاج ولا طرافة فيه ، ولسنا ممن يستمتعون بسماع صرخات هذا النوع من المرضى سواء في الطرقات العامة او في صفحات مسطورة . وقد اكدت لنا خطورة هذه الحالة التي حسبناها عادية السطور التي قرأناها في العدد الماضي لانها اوضح شهادة تثبت هذه الحالة المرضية . وقد آمن هذا المدعو من دمشق بانه دون كيشوت جديد يقدم لنا تحليلا علميا اصيلا وتوهم عن نفسه الاوهام العديدة ... ولكنه لم يستطع الا ان يكون دون كيشوت بذيئا، وما اقبح هذا النوع .

ولكن لن يشفى هذا الدون كيشوت ان يزعم انه يحمل سيف الوحدوية ويحارب به اوهامه . فمهما اكثر من ترديد عبارات وجمل الاشتراكية القومية والوحدوية والثورية ، فلن يخفي ذلك عداءه للثورة والاشتراكية العلمية ... وقد بالغنا في حسن النية ـ وهذا امر انكر علينا ـ وحسبناه ، لرطانته وتشدقه بعبارات ثورية ، حالة طريفة من حالات الثورية البرجوازية الصغيرة شبه الفوضوية التي تصاب بالافراط في الثورية والتي شخصها افضل تشخيص لينين وناضل ضدها بلا هوادة ... ولكننا بذلك نظلم الفوضوية نفسها حين ننسب اليها هذا الدون كيشوت البذيء فقد جعلنا نجزم بانه لا يستحق حتى شرف الانتساب الى دعوة ضالة وخاطئة ... واخيرا معذرة الى القراء الذين قد يرون في هذه الكلمة خروجا على الالتزام بآداب المناقشة ، ولكن عذري ان ليس هنا شيء نناقشه وانما هي حالة مرضية نشخصها فقط .

القاهرة — عبد الجليل حسن

صدر حديثا :

الشعر العراقي الحديث

مرحلة وتطور

تأليف

الدكتور جلال الخياط

دراسة موسعة تتبع سير تطور الشعر العراقي الحديث في مراحله الثلاث : ذروة التقليد في اواخر القرن التاسع عشر ، والفترة الموطئة للتجديد في النصف الاول من القرن العشرين او « التجديد الموهوم ومدرسة النثر المنظوم » وتتناول الشعراء : (الرصافي ، الزهاوي ، الكاظمي) ، وبعد ذلك يمثل الصافي وحسين مروان والجواهري المدرسة الشعرية المستقلة ، ثم مقدمة مستفيضة عن الشعر الحديث ومحاولات التجديد بعد الحرب العالمية الثانية مع دراسة مفصلة للشعراء : البياتي ونازك الملائكة وبدر شاكر السياب ، وآخرين .

منشورات دار صادر ـ بيروت